

مراحل الخلق؛ الإطار العقلي لفهم نظام الوجود وإعادة اكتشاف مكانة الإنسان

مراحل الخلق من منظور القرآن؛ الخريطة الإلهية لنظام العالم ومسؤولية الإنسان

يجد الإنسان المعاصر، في مواجهته للعالم، نفسه إزاء سيلٍ متزايدٍ من معلومات يقابلها اضطرابٌ واضح في الأطر التفسيرية. فمع أنّ العلوم التجريبية تمتلك قدرة عالية على تحليل الظواهر وشرح آلياتها، إلا أنّها لا تحسم الخلاف حين يتعلق الأمر بالكشف عن القواعد الكلية والمعنى الناظم الذي يحكم هذه الظواهر. ومن ثمّ، لا يعود السؤال الجوهري متعلقاً بكيفية وقوع الأحداث، بل بمدى خضوعها لنظام متماسك، وقوانين ثابتة، وتوجهٍ ذي غاية، أو كونها مجرد تتابع غير مترابط من الوقائع. في هذا الأفق المعرفي، تبرز الرؤية القرآنية بوصفها تصوراً شاملاً للكون، لا يكتفي بوصف الجزئيات، بل يؤسس لفهم بنيوي للوجود. إذ يعرض القرآن الخلق على هيئة مسار منظمٍ ومرتجّ، تتكامل فيه الأجزاء ضمن شبكة دقيقة من العلاقات والوظائف. واستيعاب هذا التصور لا يفضي فقط إلى تعميق فهم العالم، بل يمنح الإنسان موقعاً معرفياً واضحاً داخله، ويخرجه من دائرة اللتباس والضياع.

مراحل الخلق ومبدأ التقدير المطلق للكون

من أبرز القضايا المحورية في التصور القرآني للوجود قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^١. فهذه الآية لا تقدم توصيفاً مجازياً لنظام الطبيعة فحسب، بل تؤسس لمبدأ أصيل مفاده أن الوجود، في جميع مراتبه، قائم على التقدير والحدّ والنسبة. فليس في الكون كيان منفلت من القياس أو خارج عن إطار محدد. ويكشف التعبير الشامل «كلّ شيء» عن عمومية هذا المبدأ وامتداده إلى جميع الموجودات دون استثناء.

ضمن إطار مراحل الخلق، يؤدّي مبدأ "التقدير"، دور الأساس البنيوي الذي يقوم عليه انتظام العالم؛ إذ لولا حضور هذا المبدأ لما أمكن تمييز المراحل، ولا إقامة علاقات ذات معنى بين أجزاء الوجود. فالتقدير هو المنطق الذي يتيح للعقل الإنساني إمكانية الفهم والتحليل، ويحول دون سقوط العالم في الفوضى أو الاضطراب المفهومي.

^١ . سورة الرعد، الآية ٨

ويقوم المنهج القرآني في تفسير الكون على الانتقال من القواعد الكلية إلى الكشف عن تجلياتها الجزئية. إذ يُطرح المبدأ الشامل أولاً، ثم تُستجلى طبقاته الداخلية بصورة تدريجية. وبهذا يختلف هذا المنهج عن التعميم الغامض، لأنه يمكن الإنسان من إدراك البنية الكلية والوقوف على شبكة العلاقات والتّسبب التي تحكمها. ويأتي عرض مراحل الخلق منسجماً تماماً مع هذا النهج؛ فالقرآن، من خلال تمييزه بين أربع مراحل واضحة، يبيّن أن الخلق ليس حادثاً فجائية بلا نظام، بل هو مسار مقصود، منظم، وقابل للفهم والتحليل. وتشكل كل مرحلة تمهيداً لما يليها، بحيث إن إغفال أيّ منها أو دمجها في غيرها يؤدي إلى اختلال في فهم النسق الكوني بأكمله.

مراحل الخلق في القرآن

تُجسّد الآية الكريمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾^٢ البنية الأساس لمراحل الخلق، وترسم الإطار العام الذي ينتظم فيه نظام الإيجاد الإلهي.

الخلق بوصفه بداية تحقّق الوجود

تمثل مرحلة «الخلق» الخطوة الأولى في مسار التكوين، وهي مرحلة الإيجاد وتحقيق أصل الوجود؛ ففيها ينتقل الشيء إلى الحضور. غير أنّ الخلق، على الرغم من كونه شرط البداية لكل ظاهرة، لا يكفي وحده لتشكيل نظام مستقر ومتماسك. ووفق منطق مراحل الخلق، فإنّ الخلق لا يعني اكتمال البنية، بل يوفّر إمكانية الوجود فحسب؛ ولو توقفت عملية التكوين عند هذا الحد، لتحوّل العالم إلى مجموعة من الموجودات المتناثرة، الخالية من الترابط والمعنى. ومن هنا، تغدو المراحل اللاحقة ضرورة لإخضاع الوجود للنظام والدلالة.

دور التسوية في تماسك بنية العالم

تعقب الخلق مرحلة «التسوية»، وهي مرحلة التنظيم، وإرساء التوازن، وتحقيق الانسجام بين مكونات كل موجود. في هذه المرحلة تستقر البنية الداخلية، وتنتظم الأجزاء في علاقات صحيحة فيما بينها. وتؤدي

التسوية، ضمن منطق الخلق، دوراً حاسماً؛ إذ إنّ الخلق من دونها يفضي إلى الهشاشة وعدم الاستقرار. فالتسوية تهيبُّ الأرضية اللازمة لقبول المقادير والحدود الدقيقة، وتمنح الفوضى من التسلل إلى نظام الوجود، لتؤكد أنّ النظام ثمره ضبطٌ واعٍ، لا نتاج مصادفة عمياء.

المكانة المحورية للتقدير

المرحلة الثالثة هي «التقدير»، وهي المرحلة التي يمكن عدّها قلب نظام الخلق. فالتقدير يعني وضع المقاييس الوجودية: تحديد الطاقات، والحدود، والنّسب، ومكانة كل موجود ضمن البنية الكلية للعالم. وفي هذه المرحلة تتضح معالم الدور الذي يضطلع به كل كائن.

في منطق مراحل الخلق، لا يقتصر التقدير على الصفات الكمية فحسب، بل يشمل أيضاً تحديد علاقة كل موجود بسائر أجزاء الكون. فالتقدير هو الإطار الذي تقوم عليه قانونية العالم، ولا ينبغي الخلط بينه وبين الجبر أو النزعة القدرية الجامدة. إنّ المرحلة التي تتيح تحقّق نظامٍ ثابت، قابلٍ للفهم والتوقّع، دون أن يُلغى فيها المعنى أو المسؤولية.

الحركة في حدود المقادير

بعد التقدير، تأتي مرحلة «الهداية»، أي إيصال كل موجود إلى مساره وغايته بما يتناسب مع ما قُدّر له من طاقات وقدرات. وتمثّل هذه المرحلة مظهر الدينامية في عالم لا تُترك فيه الموجودات في حالة سكون وجمود، بل تُدفع في مسار فعلي نحو تحقيق إمكاناتها الكامنة، ضمن نظامٍ هادفٍ ومنضبطٍ.

في إطار مراحل الخلق، لا تكون للهداية دلالة حقيقية من دون التقدير؛ فقبل تحديد المقادير والنّسب لا يمكن توجيه الحركة ولا تعيين المسار. إن ترابط هاتين المرحلتين يُبرز التماسك الداخلي لنظام الخلق، ويكشف عن وحدته البنوية. إن ما يجعل مراحل الخلق «نظاماً» ليس مجرد تعدّدها، بل العلاقة الداخلية والتلازم البنوي بينها. فهي ليست أجزاءً منفصلة، بل حلقات في سلسلة واحدة، تمثّل كل حلقة منها شرطاً لتحقيق ما يليها.

فالخلق من دون تسوية يؤدّي إلى التبعثر وعدم الاستقرار، والتسوية من دون تقدير تفقد معيارها ومقياسها، والتقدير من دون هداية ينتهي إلى الجمود وغياب الغاية. ومن ثمّ، فكل مرحلة تتأثر بما قبلها، وفي الوقت نفسه تهيئ الأرضية لما بعدها.

ضمن هذا الإطار، ينبغي النظر إلى الخلق بوصفه عملية متواصلة، تتكامل فيها «الإيجاد»، و«الانتظام»، و«التقدير»، و«تحديد الاتجاه» على نحو طولي متدرّج، لا على نحو متوازٍ منفصل. وهذه الاستمرارية تدلّ على أنّ الوجود لم يتشكّل وفق منطقتين متقطّعتين أو عشوائيتين، بل يسير وفق نظام تدريجي مقصود؛ نظام يبقى فهم كل جزء منه ناقصاً ما لم يُنظر إليه في سياق المسار الكلّي بأكمله.

مراحل الخلق وتبيين موقع الإنسان في نظام الوجود

الإنسان يُعرف داخل هذا النظام المرهلي ذاته. وما يميّزه عن سائر المخلوقات ليس خروجه عن النظام والقانون، بل طريفة تحقق هدايته. فالهداية البشرية واعية وتقوم على الاختيار الحر. وقد وضع القدر الإلهي في الإنسان قدرة على الاختيار، والهداية ترسم له المسار الصحيح لتوظيف هذه القابلية.

إن فهم مراحل الخلق يحول دون الوقوع في خطأين شائعين: الجبرية المطلقة، والانفلات من كل ضابط. فالإنسان ليس مكرهاً ولا متروكاً بلا قيد، بل هو كائن مسؤول داخل نظام دقيق وهادف.

إن إدراك مراحل الخلق يُعيد تصحيح نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى العالم من حوله. فالمواهب، والقيود، والموقع الوجودي للإنسان ليست أموراً عشوائية، بل تكتسب معناها في إطار التقدير. وكلّما تعمّق هذا الفهم، ازدادت عقلانية تحمّل الإنسان لمسؤوليته تجاه ذاته، ومجتمعه، والعالم.

إن استيعاب هذه البنية يمنع الإنسان من التصادم مع نظام الوجود، ويدعوه بدلاً من ذلك إلى تناغم وإعّامه. ويظهر تحليل مراحل الخلق أنّ الكون نتاج عملية دقيقة، مرحلية، ومقصودة. فالخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية أربعة أركان مترابطة، يبقى فهم أيّ منها منقوصاً من دون الآخر. ومن خلال إدراك هذا الإطار، يستطيع الإنسان أن يعيد اكتشاف موقعه الحقيقي في العالم، وأن يحدّد على نحو سليم علاقته بالاختيار، والقانونية، والمسؤولية. وهذا الفهم يوفّر أساساً عقلياً راسخاً لحياة واعية في هذا الوجود.